كفاح بائعات الشاي بين الحاجة والتهميش



إنها ليست مجرد رائحة احتراق عابرة، بل هي "عطر الكرامة" الذي ينبعث من مواقد صدئة شهدت على سنوات من الجلد والصبر تحت لوافح الصيف الحارقة التي تصهر الأسفلت، وصقيع الشتاء الذي يجمد الأطراف.

خلف هذا الدخان المتصاعد، لا يقبع مجرد "كوب شاي"، بل تولد ملحمة يومية من الصمود، بطلتها امرأة انحنت خلف موقدها لتعتدل حياة أسرتها، محولةً "الحاجة" المادية إلى "حراك عصامي" يرفض ذل العوز والانتظار الممل على عتبات الجمعيات الخيرية وظلم الإدارات الحكومية.

لقد تحولت هذه الظاهرة من مجرد نشاط تجاري بسيط إلى صرخة صامتة للمطالبة بالعدالة الاجتماعية؛ صرخة تؤكد أن الفضاء العام ليس ملكاً للمكاتب المكيفة وحدهم، بل هو ساحة لمن انتزعوا حقهم في الرزق الكريم.

إن المشهد الذي نراه اليوم على الأرصفة هو اختبار حقيقي لضمير المؤسسات، حيث يتحول الرصيف من مساحة صماء للعبور إلى منصة للحق في الوجود، حيث "رائحة الانتماء" للأرض تُترجم إلى فعل كفاحي يومي يضعنا أمام تساؤل جوهري حول أولوياتنا الوطنية: هل نجمل المدن بالإسمنت، أم بأجساد الكادحين الذين يرفضون الانكسار؟

لم يعد الرصيف في مدننا مجرد مساحة هندسية صماء مخصصة للمشاة، بل استحال بفضل إرادة كادحة إلى "منصة استراتيجية" لصياغة مفهوم سيادي للعدالة الاجتماعية.

إن "بسطة الشاي" في جوهرها هي فعل نضالي ضد البيروقراطية التنظيمية التي غالباً ما تتعامى عن فلسفة "العمل الشريف" لصالح مساطر إدارية جامدة لا تدرك أن الحق في الرزق الكريم يسبق جماليات المشهد البصري. هنا، يبرز صراع عميق بين لوائح لا ترى إلا "هيبة النظام"، وبين إنسان يرى في الرصيف "موضع" لانتزاع الأمان المعيشي.

لقد نجحت المرأة السعودية، بذكائها الفطري، في تحويل هذا الفضاء المهمل إلى ساحة لانتصار منطق الكسب الحلال، متجاوزةً قصور أجهزة الحماية الاجتماعية الرسمية التي فشلت في توفير حد الكفاية للعيش الكريم لكثير من الأرامل والمطلقات.

إن الرصيف هنا ليس "تعدياً"، بل هو إعلان عن سيادة المواطن على مساحته لضمان كرامته، وهو تحول يعيد تعريف العلاقة بين الفرد والمكان؛ حيث يصبح العمل القيمة العليا التي تمنح الفرد شعوراً بالحرية والندية يفتقدها في برود المكاتب الرتيبة. إنها استراتيجية فطرية للدفاع عن الحق في الحياة، حيث تتحول "البسطة" إلى وسام على جبين المواطن الذي جعل من الجمر وقوداً للأمل لا للنار فقط.

إن فهم تطور هذه الظاهرة تاريخياً يعد ضرورة استراتيجية لبيان كيف يعيد المجتمع السعودي تشكيل نفسه اقتصادياً بعيداً عن ريع الوظيفة التقليدية. لم تنشأ هذه البسطات من فراغ، بل كانت جذورها ممتدة في القرى والمناسبات الشعبية قبل عام 2010، حيث كانت ممارسات نسائية محدودة بعيداً عن صخب الحواضر. إلا أن ارتفاع تكاليف المعيشة والحاجة لابتكار حلول ذاتية دفع بهذه القوة الكادحة نحو "قلب المدن" بحثاً عن لقمة العيش.

شهدت الفترة ما بعد عام 2015 انتقالاً حاداً للظاهرة من الأطراف إلى مراكز المدن الساحلية مثل جدة والخبر، ثم الحدائق العامة، كرد فعل اقتصادي مباشر على تعقيدات الحياة.

ومع بزوغ فجر عام (الضريبة) 2017، شكلت التحولات الكبرى في رؤية 2030 الوقود الحقيقي لهذا الحراك؛ حيث لم يعد العمل على الرصيف ممارسة "للفقراء" فقط، بل تحول إلى "اقتصاد صمود" يشارك فيه الجميع.

هذا الزخم لم يكسر "ثقافة العيب" فحسب، بل أعلن نهاية مرحلة "الظل" وبداية مرحلة "الضوء" التي يتوسط فيها الكادحون المشهد العام، محولين الحاجة إلى طاقة بناء تخدم الدورة الاقتصادية المحلية.

تتوزع "بسطة الشاي" على خارطة الوطن كجغرافيا للحاجة والكرامة، حيث برهنت البائعات على ذكاء اجتماعي منقطع النظير في "أنسنة المدن".

ففي المنطقة الغربية، وتحديداً في المدينة المنورة وجدة، تحول الرصيف إلى نقطة جذب استثمارية شعبية تستهدف الزوار، بينما تميزت المنطقة الشرقية بصناعة "اقتصاد الثقة" عبر منتجات منزلية مثل كيك المعجون بالصبر وشاي الحبق. أما في المناطق الجنوبية، فقد امتزج دفء الموقد بالتراث الجبلي، حيث تحولت طرق السفر الوعرة إلى واحات للضيافة تقدم خبز التنور والسمسم.

لقد استطاعت هؤلاء البائعات هزيمة "الاحترافية الباردة" للمقاهي العالمية عبر ميزة تنافسية نابعة من قلب البيئة؛ فاستخدام حطب "السمر" أو "القرض" لإضفاء نكهة الأصيلة، إن اختيار البائعات لـ "النقاط الذهبية" عند مداخل المدن ليس مجرد بحث عن الربح، بل هو تأسيس لـ "شبكات أمان اجتماعي غير رسمية". إن وجود البائعة يحول الميدان الصامت إلى مساحة تنبض بالحياة والأمان.